المبحث الثاني: نزول القرآن وكيفيته

- **ابتداءُ النُّـــزول:**

كان نزول جبريل عليه السلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غار حراء مؤذنٌ ببداية النّبوة، وقد نزل بالآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: {**اقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَا وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**} [العلق: 1 – 5].

وقد أشارت ثلاث آيات إلى بداية النُّزول، وذلك قوله تعالى: {**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**} [البقرة: 185]، وقوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ *فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**} [الدخان: 3 – 4]، وقوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**} [القدر: 1].

وهذه الآيات في ظاهرها تشير إلى أول نزولٍ للقرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنه كان في ليلة القدر من شهر رمضان، وهذا النُّزول على الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو

الذي يتعلق به هداية الناس في قوله تعالى: {**هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**} [البقرة: 185].

وللعلماء في نزول القرآن مذهبان أساسيان:

1. النُّزول الجُملي:

ثبت عن **ابن عباس** رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**} [القدر: 1] أنه نزل إلى سماء الدنيا، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**} قال: «أُنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، كان بموقع النجوم، فكان الله ينْزله على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعضه في إثر بعض، قال عزّ وجل: {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**} [الفرقان: 32]»

وهذا النُّزول الجملي لا تتعلق به أحكام سوى بيان شرف هذه الأمة وفضلها؛ إذ نزوله بهذه الصفة دون غيره من الكتب إيذان بتميُّزها عن غيرها، والله أعلم.

ولما كان هذا النُّزول الجملي من المغيبات، فإنه يخرج عن السؤالات التكييفية، فالبحث في كيفية هذا النازل، وفي أحواله من ترتيبه وكيفية تدوينه، أو القول بنُزول آيات فيه لم يقع مضمونها؛ كل هذا من اقتحام كيفيات الغيبيات وهو من المتشابه الكلي الذي لا يعلمه إلا الله.

أما جبريل عليه السلام فكان يتلقّاه مباشرة عن ربِّ العالمين بلا واسطة، لا كما وقع الوهم عند بعض العلماء فظنَّ أن جبريل عليه السلام يأخذه من السفرة في بيت العزَّة فيُنجِّمه على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فهذا النُّزول الجملي متعلق بأهل السماء الدنيا؛ إذ ليس فيه أثر يتعلق بأهل الأرض، أما ابتداء نزوله الذي قال الله فيه: {**هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**} [البقرة: 185] فهو متعلق بأهل الأرض؛ لأن فيه هدايتهم كما نصّت الآية.

2. النُّزول المفرَّق:

وهذا هو المذهب الثاني؛ وهو الذي رُوِيَ عن "الشعبي" أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجًا مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله مُنَجَّمًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لأن هذا هو الذي جاء به القرآن: {**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا**} [الإسراء: 106.]، وقد جادل في تفريقه المشركون الذين نُقِلَ إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة: قال تعالى: {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً، وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**}[الفرقان: 32-33]

- وهناك **مذهب ثالث**: يرى أن القرآن أُنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر، في كل ليلة منها ما يُقَدِّرُ الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك مُنَجَّمًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في جميع السنة.

وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين، ولا دليل عليه.

أمّا **المذهب الثاني** الذي رُوِيَ عن الشعبي فأدلته –مع صحتها والتسليم بها– لا تتعارض مع المذهب الأول الذي رُوِيَ عن ابن عباس. فيكون نزول القرآن جملة وابتداء نزوله مفرقًا في ليلة القدر من شهر رمضان، وهي الليلة المباركة.

فالرّاجح أن القرآن الكريم له تنزلان:

الأول: نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

والثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

* **الحكمة من نزول القرآن مُنَجَّمًا:**

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم مُنَجَّمًا من النصوص الواردة في ذلك.

ونجملها فيما يأتي:

– **تثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

– **بيان الإعجاز القرآني:** حيث عجبوا من نزول القرآن مُنَجَّمًا بيَّن الله لهم الحق في ذلك فإن تحديهم به مفرقًا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله.

– **تيسير حفظه وفهمه.**

– **مسايرة الحوادث والتدرج في التشريع.**

– **الدلالة القاطعة على أنّ القرآن الكريم منزل من حكيم حميد:** إن هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّمًا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أكثر من عشرين عامًا تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسج، دقيق السبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يُعهد له مثيل في كلام البشر: {**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**}[هود: 1].

.....

بعض المراجع:

1 – «**نزول القرآن**»، لشيخ الإسلام ابن تيمية. (ت728هـ).

2 – «**الجواب الواضح المستقيم في كيفية نزول القرآن الكريم**»، لمفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

3 – «**نزول القرآن**»، للأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع.